ومضى النعمان في قَصَصِه: ورأيتُ ولدي عتيبةَ على رأسي، وقد اخضلَّت عيناه بالدمع، وكانت أمُّه سبيكةٌ وراء ظهرِه، وكان على وجهها سترٌ رقيق تجول عيناها من ورائه، وكان مجلسك يا مولاي إلى يمين فراشي، ورأيتُ عينَي سبيكة تستقِرَّان على وجهك، ورأيت عينيك تستقِرَّان على وجهها؛ فثار دمي غيرةً وحَنَقًا — ومعذرةً إليك يا مولاي — وهممتُ أن أنهض، ولكن جسدي كان قد ناله يُبْسُ الموت، وهمَّ لساني أن ينطِق، ولكنه لَصِقَ بفكِّي، وكأنما كنتُ أرى بغير عينين، فقد كانت أجفاني مُثقلة قد أطبقت واشتبكت أهدابُها، ولكن المنظر — مع ذلك — لم يُزايلني؛ كانت عيناك مستقرتين على وجهها، وعلى شفتيك كلماتٍ أراها ولا أسمعُها، وبعضُ الكلام يُرَى ولا يُسمَع، ثم مِلْتَ عليَّ فقبَّلتَ جبيني، وانحدرتْ على خدَّيك دمعتان، وسمعتك تقول: هوِّن عليك يا أبا عتيبة، إنَّ بيننا نسبًا وصهرًا …

وكانت دمعتان تنحدران في تلك اللحظة على خَدَّي مسلمة، وقد مال على النعمان كأنما يهمُّ أن يُقبِّله، لولا بُعد ما بين الراحلتين، ثم قال وصوته يختَلِج: هيه يا أبا عتيبة!

– وخففتُ من ثِقَل، وحلَّقتُ بعيدًا، وغاب عني منظر السماء والأرض، ثم فِئتُ إليك، ورأيتك هذه المرة في خيمةٍ من ديباج، قد أُقيمَت في وادٍ أَفْيَحَ قد انبسط الزرعُ فيه على مدِّ البصر، وانتثرت فيه بيوتٌ من خشبٍ تسرحُ حواليها قُطعانٌ من الجاموس والغنم، وكأنما سمعتُ الأذان والتكبير في هذه البيوت المنتثرة بين المراعي الخصبة، فعلمتُ أنني في أرضٍ عربية، وأنك صاحبها، فإن صَدَقَتَ رؤياي يا مولاي، فتلك بضعة من أرض الروم مما يلي القسطنطينية، حيث ينتهي خليجُ أبي أيوب، لقد نزلتُ هذه الأرض ذات مرة في بعض الصوائف ضيفًا على أبي أيوب، فأطعمني من ثمراتها وسقاني وأظلَّ مَقِيلي!

كان مسلمة مُنصِتًا لحديث صاحبه وهو مسترسل فيما يقصُّ من رؤياه: ورأيتُك في خيمتك هذه التي وَصفْت، وقد سيق إليك أُسارى من الروم، فأمرتَ بأن تُضرب أعناقهم، ومَثَلَتْ سبيكة لعينيَّ في تلك اللحظة تَحُولُ بينك وبين ما تريد من سفكِ دمائهم، فنوَّلتَها العفو عنهم ونوَّلتهم العافية …

وكان بدن مسلمة يختلج، وهو يقول ولا يكاد صوتُه يبلع أذنيه: هيه يا أبا عتيبة!

– ثم رأيتك في الرقة، وكان ثَمَّةَ أخي عُتبة قد جلس بين ولديه بشير ونوار، ورأيتُك تُدنِي عتيبة ولدي منك فتضمُّهُ إليك، وعلى شفتيك كلمات لا أسمعها، وتُفيضُ برَّكَ على أخي وولدي وأهلي جميعًا، لا تستثنِي منهم أحدًا، ثم تمضي وعلى شفتيك كلماتٌ لا أسمعها كذلك …